تنسيق

سعيد بنحمادة محمد البركة

تقديم

أ.د. عبد الإله بنمليح

الحِرَف والصنائع بالغرب الإسلامي

مقاربات لأثر المجال والذهنيات على الإنتاج

الجزء الأول والجزء الثاني

إهـداء

إلى الإنسان العالم والعالم الإنسان

الأستاذ الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش

تقديم

أ.د. عبد الإله بنمليح

قيض الله تعالى " للمدرسة التاريخية المغربية " ثلة من الباحثين الشباب فكرا وعمرا، آلوا على أنفسهم أن يتقلدوا مهمة خلخلة الأفكار والمفاهيم والرؤى التي تداولتها أقلام الجيلين الأول والثاني من مؤرخي مغرب ما بعد الاستقلال.

والقراءة المتأنية لمقدمة الكتاب، الذي شرفني منسقاه زميلي الأستاذان الفاضلان سعيد بنحمادة ومحمد البركة بتقديمه للقراء، تشي بملامح وبوادر لا يمكن إلا أن تبعث فينا جميعا شعورا بالارتياح والطمأنينة وتعيد إلينا بسمة التفاؤل، بخصوص مستقبل الكتابة التاريخية بتعقيداتها وتلاوينها المختلفة والمتعددة، في زمن أصبح البوح بالطمأنينة والارتياح يكاد يكون عزيزا.

أتى حين ساد فيه الاعتقاد أن جيلا من طينة محمد زنيبر ومحمد القبلي وإبراهيم حركات وأمثالهم قد ولى، غير أن جيل إبراهيم القادري بوتشيش ومحمد الشريف والحسين بولقطيب وأحمد الطاهري وحسن حافظي العلوي ونظرائهم أعطى للكتابة التاريخية المغربية الوسيطية وهجا جديدا بعد ضمور واسترخاء.

واليوم يضرب لنا محمد ياسر الهلالي وسعيد بنحمادة ومحمد البركة وحميد تيتاو وعبد الهادي البياض وأقرانهم موعدا جديدا لن يخلفوه، يشع حماسا ويفيض حيوية.

يتحلى الكتاب الذي أسعد بتقديمه بميزة أساسية أولى تتمثل في كون موضوعه الرئيس: "**الحرف والصنائع بالغرب الإسلامي**"، موضوعا قديما جديدا في آن. فقد تناولته أقلام عديدة لكتاب ومؤرخين وفقهاء وجغرافيين ورحالة ومفتين ... بشكل مباشر أو غير مباشر، كما تداولته أقلام باحثين معاصرين، مغاربة وغير مغاربة، فأنجزوا عنه رسائل وأطاريح جامعية ذات طابع أكاديمي بخصوصية ميدانية، فضلا عن أبحاث مغايرة خاصة على المستوى المنهجي. فما الجديد الذي يحمله هذا العمل بين دفتيه؟

لم يتردد منسقا الكتاب في التصريح بذلك خلال وضع عنوان فرعي له، هو : "مقاربات لأثر المجال والذهنيات في الإنتاج"، مما لا يدع مجالا للشك في أننا أمام

معالجة جديدة ترصد مؤثرين اثنين في الإنتاج الحرفي بالغرب الإسلامي، وتخصهما بالأولوية، هما المجال والذهنيات، اجتمع حولهما 21 بحثا و21 باحثا.

إن قراءة هذه الأبحاث الموزعة على أربعة محاور (مقاربات وظيفية، التنوع المجالي، التصورات الذهنية، الأنشطة الإنتاجية)، تفرض جميعها استنباط مجموعة من الخلاصات، منها:

- حضور المجال في التوزيع الحرفي، بشكل يجعل منه محددا أساسيا لـ"تخصصات" حرفية معينة، من الواحة إلى الجبل إلى المدينة.
- تنوع المقاربات، من التاريخية إلى الأنثروبولوجية إلى الإحصائية.
- تدخل الروحي بموازاة المادي في توجيه الصنائع والحرف، عبر وسائط فقهية وصوفية وحرفية أيضا.
- شمولية الانتاج الحرفي، من الزراعة إلى الرعي إلى التعدين.

"فهل برقت معاني الوصل وغاية القصد؟" بهذه العبارة الجميلة، التي صيغت في شكل سؤال رصين، ختم منسقا الكتاب مقدمته.

يتضمن العمل في شموليته أجوبة شافية، فهو وإن عد من قبل أصحابه "تمرينا رابعا"، فإنه يرقى، وقد حظي بتسلسل زمني رابع، بحظوة النضج. الذي يمكن تلمسه في دسم المواد منهجيا ومعرفيا. ويبقى الوعاء النظري الذي تم تأطير مباحث الكتاب ضمنه نقطة مضيئة، جدير بأن تحتذى، ليس على مستوى الكتابة التاريخية المغربية الوسيطية، وإنما نأمل أن تعم أصداؤها، على الأقل، الفترات السابقة عنها واللاحقة عليها.

بارك الله جهود هؤلاء الباحثين وأضاء أمامهم سبل البحث الجاد الرصين إسهاما منهم في النهوض بالبحث التاريخي في الجامعة المغربية.

فاس

مقدمة

يبدو أن تعدد أصول البناء، وتنوع القضايا على اختلاف مجالات تصنيفها، أصبح ثنائية لا يمكن الجهر بانفصالها، إلا إذا استحكمت رغبة الوصول إلى قصد محدد يكون فيه تعزيز فكرة مسبقة، أو رغبة في إقصاء جوانب محددة سلفا تكون مبررا لتأكيد حكم سابق أو تصور مسطر، نظرا لأن ما كان ثنائية ليس في الأصل سوى وجهان لعملة واحدة؛ إذ الكتابة التاريخية ليست خطا مستقيما لا يتزحزح من موضوعه إلى مواضيع أخرى، وإلا غدت القضايا -أثناء البحث- عبارة عن خطوط مستقيمة لا يمكن التقاؤها، وهذا تصور ضيق للكتابة من جهة، ومضيق للموضوع من جهة ثانية، كما أنه تجاوز لعامل المنهج الجامع لمجموع القضايا على اختلافها ثالثا، لأنه لا يتوقع عند أصحاب الثنائيات امتداد الموضوع الواحد إلى غيره من القضايا، بل يستبعد تشابك القضايا الكثيرة في تركيبة واحدة أثناء المعالجة والدراسة.

وحقيقة حضور مثل هذا التصور، يكشف للمتتبع عمق تكريس فكرة اقتران القضايا بأسماء الباحثين فيها، حيث أصبحت المواضيع حكرا عليهم، حتى وإن لم يكن بإيعاز منهم، فعلى الأقل بإيعاز من المتتبع لكتاباتهم أو الراصد للكتابة التاريخية، وهو تصور يرى أن المعالجة المنجزة لتلك القضايا لا يمكن اقتحامها لأنه سلف دراستها، وإن تمت معاودة دراستها فلا يمكن تحقيق تقدم أو استدراك فيها، لأن في سالف بحثها من قبل أولئك كمال لتمامها، وهذا في جزء منه يكشف عن الاختزال الوارد في بعض معاني البحث المتداولة بين الباحثين، وتجاهل أو نسيان لفكرة ذهبية في البحث التاريخي، مفادها أن الأصل في البحث هو أن الحقيقة التاريخية بحث مستمر لا يمكن إدراكه، والنسبية في مجموع الأعمال على اختلاف المناهج المعتمدة أمر وارد وحتمي.

إن مثل هذا التصنيف الذي طبع البحث التاريخي منذ السبعينات وإلى اليوم، والذي سماه محمد القبلي بمرحلة الحراك المنهجي[1]، ما يزال ممتدا برأينا إلى اليوم،

---

[1]- محمد القبلي، حول تاريخ المجتمع المغربي في العصر الوسيط: مقدمات أولية وقضايا، نشر الفنك، الدار البيضاء، 1998م: 12، 13.

والسبب في ذلك ليس راجعا للرغبة في تحطيم منجزات البحث التاريخي على امتداد عمره، فذلك رصيد معتز به، لأنه متعدد النتائج الموزعة بين البعد المعرفي والمنهجي والتاريخي والمصدري والأدبي، والواهم من يركب قطار القطيعة بين أجيال الباحثين، أو حتى المتبني لفكرة أفضلية السابق على اللاحق أو العكس، ولكن لأن الرغبة تحدو اللاحق كما حدت بالسابق في تطوير البحث التاريخي والجمع بين منجزاته إقرارا بالضوابط المنهجية المتوصل إليها من قبله، وتمحيصا لأخرى معلن عنها هي محط نظر واختبار، وتعزيزا بثالثة مفكر فيها هي قيد الكتابة والتسطير، وهذا وغيره هو الصانع لفكرة "المدرسة" في صيرورة بنائها.

ولما كانت المسؤولية تحدو الباحثين اليوم إلى المواصلة، كانت إسهاماتنا لبنات متوالية تبغي الاستمرارية والتراكم بقصد الإيضاح، دون اختزالها في عمل واحد فقط؛ فإذا كان كتاب "**الطوبونيميا بالغرب الإسلامي**" قد مثل تمرينا أولا، الغرض منه اقتحام موضوع جديد يتعلق بأسماء الأماكن، بحثا عن القيمة العلمية التي يقدمها للبحث في تاريخ بلاد المغرب والأندلس، وتأسيسا للضوابط المنهجية التي يمكن توسلها أثناء معالجة مثل هذه المواضيع، حيث تم تنزيل البناء النظري لتلك الوسيلة المنهجية على نماذج وتمثلات متنوعة اعتمادا على المصادر المكتوبة أو المادية ذات الصلة بالبحث الأثري، فإن ذلك كله مثل اختبارا **للمقاربة المنهجية** وتعزيزا لها بما هو ممكن ومتاح لغير الباحث في تاريخ الغرب الإسلامي.

ثم إذا كان كتاب "**النخبة في تاريخ الغرب الإسلامي**" قد عد تمرينا ثانيا، الهدف منه هو البحث عن قيمة صلة البحث التاريخي **بالمقاربة الموضوعاتية**؛ إذ البحث في جزئيات الموضوع الواحد على اختلاف زوايا النظر يساعد في التوصل إلى نتائج ملهمة ومبشرة، والحصيلة المتنوعة تحتاج إلى التجميع بغاية النفاذ إلى عمق الموضوع، على الرغم من التباين الظاهر في عناوين الجزئيات. وفي ذلك إعلان بوجاهة الدعوة المعلنة للتكامل بين المصادر والمناهج في دراسة القضايا، بأفق شمولي يحقق التراكم المنهجي المطلوب، المبني على المعطى التاريخي في شموليته رغم المقاربات المعتمدة، شريطة صياغتها وفق رؤيا تاريخية تبحث في الجزء تفصيلا وتتجاوزه بغاية بناء الكل توصيلا، **فالسياق التاريخي المندمج** الذي يجمع بين الأسباب والنتائج في منظور شمولي لا

يجزئ العوامل ولا يفصلها عن المظاهر، هو الكفيل ببعث الحياة في البحث دون تصلب لما أنجز، أو تصنم لما تحقق.

ثم إذا كان كتاب "**الفقه والتاريخ بسجلماسة**" قد اعتبر تمرينا ثالثا، القصد منه هو البحث في **المقاربة المصدرية** من خلال صنف محدد من المادة المصدرية، بحثا عن المفاتيح المنهجية لقراءته؛ فإن النتائج المتوصل إليها أبانت عن قيمة المصادر الفقهية وكتب النوازل، ليس في دراسة المحور السياسي أو الاقتصادي أو حتى الاجتماعي، بل في التأسيس لمعرفة منهجية صارمة وموجهة تساعد على استثمار هذا الجنس المصدري، دون الوقوع في منزلقات قد تنحرف عن المبتغى من النص.

واليوم، ها هو كتاب "**الحرف والصنائع بالغرب الإسلامي**" يرى النور، وهو عبارة عن تمرين رابع، هدفه البحث في نتائج إعمال **المقاربة التاريخية المنشطرة والمتعددة الشظايا**، المعتمدة على ضوابط التنقيب التاريخي كما أعلن عنه (الإشكالية، والمفاهيم، والمنهج، والمصادر، والقضايا)، في غاية يراد لها أن تكون دليلا على أهمية التاريخ في مد كل التخصصات بالمعطيات اللازمة لدراسة الموضوع الواحد من جهة، وعلى قدرته في إثارة النقاش في الموضوع نفسه من مختلف جوانبه وجزئياته من جهة ثانية، وعلى صلة الموضوع بمواضيع أخرى من جهة ثالثة. إنها مقاربة تسير باتجاه التاريخ الجامع بين التاريخ من فوق ومن أسفل، يعرضها مجموعة من المؤرخين الشباب الأكثر انفتاحا على المصادر بمختلف أجناسها والمناهج على تعدد تخصصاتها. إنها مقاربة تقوم على أساسا تضييق مقياس الملاحظة بالتركيز على القضية الجزئية الواحدة الدقيقة، لكن دون فصلها عن سياقها وموضعها وعواملها وعلائقها المتصلة بغيرها، حتى ولو كانت تنتسب للحدث المكثف، لأن الدال على وجود هذه المقاربة وإعمالها هو وجود سلسلة من المداخلات والمقالات والمناقشات والإسهامات التي حاولت أن تتسم بميزة التأصيل والتنوع والتشارك والتراكم والاستمرارية، طلبا لاستخلاص القواعد، بغاية بيان عوامل خفية غير ملتفة إليها. عوامل ترى أن النظر في القضايا الدقيقة والوقائع الصغيرة، لا يمكنه **الجهر بالمهموس** فيها دون الانفتاح على طرائق منهجية تعطي عناية ليس للثقافي ولا للاقتصادي ولا للأشخاص المغيبين فقط، بل تجمع بين كل ذلك، في غير تجاهل للمعطى السياسي والعسكري، ولا تغافل عن العامل الجغرافي والاقتصادي؛ إذ الحياة اليومية هي كل هذا وغيره، والبحث فيها دون

تفكيك أولا، ودون تركيب ثانيا، هو إغفال عن رصد شظايا القضية في طبيعتها، وهو تجاهل عن جمع آثار الشظايا في سياقها، لأن هذا التفكيك والتركيب هو القادر على **الجهر بالمهموس**.

وحتى يتحقق كل ذلك، يصبح من اللازم التشبث بالمقاربة التاريخية المصهرة لكل الشظايا والمقاربات، لكونها تجمع بين القواعد والضوابط من جهة، والتمثلات والتصورات والرؤى من جهة ثانية، وتدمج بين الثنائيات لمد الجسور بين القضايا والمناهج في أفق ترسيخ البعد الإشكالي للموضوعات وربطها بسياقاتها، وهو ما تم إنجازه في هذا العمل بالاقتصار على صنف من الباحثين، يصنفون في دائرة الجيل الجديد من الباحثين أو الجيل الثالث من المدرسة التاريخية المغربية بامتدادها المغاربي والعربي، إعلانا عن الامتداد والاستمرارية والتراكم من جهة، وعن التجميع والتجديد والتعاون من جهة ثانية، في غير استقلال ولا تميز.

إذ من العناصر الملهمة في هذه المسيرة هو أن الاكتفاء لم يقف عند عمل فردي أو ثنائي، بل زيد على ذلك بترسيخ أسس التعاون العلمي بين باحثين عُدُّوا فَسائل لمدرسة تاريخية، ترفض الثنائيات المتخاصمة، كما تأبى الزعامات المستبدة، والنتيجة صدور مثل هذه الأعمال، التي عدها البعض بصمة جديد في البحث التاريخي، نظرا لكونها جمعت أقلاما ورؤى، زاوجوا بين التأسيس النظري والتطبيق العملي لمجموع القضايا المعروضة.

لذلك فالكتاب هو محاولة رصد للمعالم المنهجية في الكتابة عن **"الحِرَف والصنائع بالغرب الإسلامي"**، أكثر من كونه إسهام في البحث في الموضوع بذاته بأغلب تجلياته، لأن الصورة مع المواضيع المتعددة تصير مشتتة، لكنها مع الموضوع الواحد تكون أقرب للوضوح والإيضاح، وبذلك أمكن تلمس معالم التوجه المنهجي عند هذا الجيل الجديد من الباحثين، بل أمكن التدقيق في عناصر الائتلاف والاختلاف في الكتابة، وكذا رصد معالم الإضافة التي سطرها هؤلاء الباحثون مواكبة منهم للجهود السابقة في البحث التاريخي، والتي أقامها أساتذة كبار، شكلت أطاريحهم ومؤلفاتهم وأبحاثهم ومقالاتهم اللبنة الأساس لتكوين هذه النخبة المسهمة اليوم في هذا العمل.

والكتاب إذ يهدف إلى رصد القواسم المشتركة بين هؤلاء الباحثين المسهمين، ليس لأنهم يمثلوا تيارا مستقلا في البحث التاريخي أو حتى في الكتابة التاريخية، بل فقط

لأنهم يشتركون في الرغبة في سبر أغوار تاريخ مجال الغرب الإسلامي، عبر الإجابة عن إشكال واحد هو: كيف السبيل إلى الإلمام بعمق تاريخ الغرب الإسلامي والنفاذ إلى المهموس منه؟

وهكذا وإيضاحا لمظاهر التيسير والتقريب المطلوبين في مثل هذه الأعمال، حرصنا على حضور أكبر عدد من الباحثين بمواضيع محددة تصل واحدا وعشرين بحثا، كلها ذات صلة بالحرف والصنائع بالغرب الإسلامي، حيث كانت الرغبة تحدونا في تحقيق البعد التكاملي من حيث الإشكالية بتفرعاتها، والمفاهيم بإعمالها، والمنهج بتجريبه، والرؤيا بسعتها وعمقها، والمصادر بتنوعها، والقضايا بتقاطعاتها، لذلك جاءت أبواب الدراسة موزعة إلى أربعة أبواب، الباب الأول تناول مقاربات وظيفية للحرف والصنائع، في حين عرض الباب الثاني للتنوع المجالي للحرف والصنائع، أما الباب الثالث فهَمَّ التصورات الذهنية للحرف والصنائع، ليتم التركيز في الباب الرابع على الأنشطة الإنتاجية للحرف والصنائع.

إن مثل هذه الأعمال البحثية، ورغم ما يعتريها من صعوبات في المتابعة والتنسيق والمراجعة توحيدا لرسوم الكتابة، وما يتطلبه ذلك كله من صبر وأناة حتى يستوي العمل على سوقه، لهو من المكابدة الواضحة التي يعيها أصحاب المصابرة البحثية، والتي لا يعلم قدرها إلا من خبر معاني الاحتراق فيها، ولا يقدر جسامتها إلا من اغترف دلالات البحث أثناء الاختراق له، طمعا في إيضاح معالم الإضافة لدى جيل جديد من الباحثين، ورغبة في تسطير قواعد عمل تكوّن مسارا جديدا من مسارات البحث التاريخي وتعبيرا عنه شكلا ومضمونا.

إن التاريخ بما هو مجموع آثار حركة الإنسان، التي يلفها نسق من آليات الضبط الجامعة بين الزمان والمكان والفكرة، هو الضامن لمواصلة مسيرة الفعل البشري؛ فالتاريخ ليس أحداثا وقعت ووقائع حدثت في الماضي فحسب، بل هو عنصر متحكم في الحياة عند الحاضر وصانع لها ضمن عناصر في المستقبل؛ إذ التاريخ بأحداثه لا ينطوي على أية قصدية إذا تم إبعاد مضمونه عن صيغ العبرة للحاضر والمستقبل، **فالتاريخ مسلك الاعتبار والإبصار**، والكتاب وغيره يرجو أن يكون كذلك، فهل برقت معاني الوصل وغاية القصد؟

إن المعاني حتى وإن كثرت، وإن المقاصد حتى وإن تعددت، فإنها لن تحجب عنا القول بأن كل من أسهم في هذا الكتاب أو من لم يسعفهم الجهد أو الوقت أو تعذر الاتصال بهم أو غيرهم،كانوا ممن تتلمذوا على يد **الأستاذ الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش** بالقراءة لكل إصداراته أو بعض مؤلفاته ومقالاته، أو بالملاحقة في بعض مشاركاته ومداخلاته ومساهماته، أو جلسوا منه مجلس الدرس والتحصيل في سنوات الإجازة أو سنوات المعمقة، أو كان للأستاذ عليهم فضل الإشراف والتأطير، أو برقية التوجيه والتسديد، أو حضور المناقشة والتوشيح، لكل ذلك وغيره كان من الواجب الاعتراف بالجهد والعلم والأخلاق والصحبة والمواصلة والعطاء؛ إذ هي أوسمة توشح بها **الأستاذ الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش**، فكان حقا علينا إهداءه هذا العمل، عربون وفاء له ولأمثاله من العلماء المهتمين بالتاريخ عموما وتاريخ الغرب الإسلامي خصوصا.

سعيد بنحمادة ومحمد البركة

المحتويات

الجزء الأول

إهداء 4
مدخل عمرانى 5
تقديم 7
مقدمة 9

الباب الأول

مقاربات وظيفية للحرف والصنائع

المعالجة التاريخية للحرف والصنائع بالغرب الإسلامي: مقاربات منهجية ومطارحات تأسيسية
محمد البركة 15
صحوة دراسات المهمَّش
خالد طحطح/ خالد اليعقوبى 47
خطاب الحسبة على الحرف والصنائع بالغرب الإسلامى: سيرورة المراقبة وأبعاد المعاقبة
محمد بنحمادة 81
دور الوقف فى رعاية الحرف والصنائع بالمغرب خلال العصر المرينى
بدرية حمد البراق الثبيتى 107
الصناعة والحرف بالمغرب الأقصى: مساهمة إحصائية وديموغرافية ما بين ق 6 و8هـ/ 12 و14م
حميد اجميلى 119

الباب الثاني

التنوع المجالي للحرف والصنائع

الحرف والصنائع بواحات الجنوب الشرقى المغربى خلال العصر الوسيط: واحة سجلماسة/ تافيلالت أنموذجا 139
محمد امرانى علوي
الحرفيون والمجال الجبلى بالمغرب الأقصى الوسيط من خلال "وصف إفريقيا" للحسن الوزان
الحسن الغرايب 161
الأبعاد الاجتماعية لنظام الطوائف الحرفية: بفاس المرينية والوطاسية
عبد اللطيف الخلاى 171
الصناعة والإنتاج الحرفى عند البورغواطيين ببلاد تامسنا
مولود عشاق 183
الحرفيون والبيئة بالغرب الإسلامى
بودالية تواتية 191

الجزء الثاني

الباب الثالث

التصورات الذهنية للحرف والصنائع

حرف الفقهاء بالغرب الإسلامي الوجه الآخر لمظاهر كسب المعاش عند النخبة
محمد البركة 15

حرف المتصوفة في العصرين المرابطي والموحدي من خلال كتابي "التشوف" و"المستفاد"
عبد الهادي البياض 51

صناعة الطبخ وحِرَفية الطباخين بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط
سعيد بنحمادة 81

جوانب من الحياة السياسية للحرفيين خلال العصر المريني
مولاي الحسن مغار 129

الحرفيون بالغرب الإسلامي بين العنف والتعنيف
حميد الحداد 151

الباب الرابع

الأنشطة الإنتاجية للحرف والصنائع

الحرف والأنشطة الزراعية بالغرب الإسلامي
حميد الفاتحي 187

حرفة الرعي بالغرب الإسلامي
بلمداني نوال 217

المقاييس المستعملة في المجال الفلاحي ببلاد المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط
محمد عمراني زريفي 275

حرفة التعدين خلال العصر الموحدي: استغلال الفضة بمنجم عوام نموذجا
عبد العالي بن امحمد 291

الحرف التجارية بالغرب الإسلامي الوسيط: ملامح عامة
رشيد اليملولي 299

الوراقة بالغرب الإسلامي: قراءة في دينامية استعمال حوامل الكتابة
أحمد الصديقي 317